إلى "الطيّب" أردوغان

واستطراداً إلى كلِّ من يهمّهُ الأمر

الشيخ د. جعفر المهاجر

(١)

لم يكن يخطر لي ببالٍ أنّني ، أنا الفقيه الذي صرف جُهدَه إلى التاريخ ابتغاءَ ما فيه من دروسٍ وعِبَر، أنّني سأجدُ نفسي مُلزَماً بأن أُخاطبَ رئيسَ حكومةِ دولةٍ إسلاميّةٍ كُبرى ، امتثالاً للأمرِ لأهل العلم بأن يُظهروا علمَهم ، خصوصاً لأولياء الأمر، إذا ظهرتْ الفتَن . دونَ أن ينتقصَ ذلك من قَدرهم وحقّهم . لِما نعلمُهُ أنّ كبارَ المسؤولين في الدُّول المتقدّمة يُحيطون أنفسَهم بأوعية العلم Think tank لاستشارتهم عند اللزوم فيما هم فيه عارفون . بل قد يُوجّهون جامعاتِهم باتجاهِ إنجابِ مُختصّين بما يتناسبُ مع ما يجِدُّ من توجّهاتهم السياسيّة .

(٢)

إنني بوصفي مؤرّخاً ، قضى الشطرَ الأطيبَ من عمره مُتأمّلاً في ضروب السلوك البشري ، أؤمنُ إيماناً راسخاً بأن للذّاكرةِ الجَمْعيّةِ سلطاناً طاغياً على سلوك الأمم . شرطَ أن لا نفهمَ من هذا أن هذه الذّاكرة الجَمْعيّة هي كالذّاكرةِ الفرديّة نستدعيها أو نتناساها وِفقاً للحاجة والمُقتضي . بل هي تفرضُ نفسها فرضاً حين يكونُ على الأمّة بشخصِ قادتِها أن تتخذَ قراراً مفصليّاً . من هنا فإنّ الكلامَ على حُريّة الإرادة أو حُرّية القرارحين يكونُ المَعنيُّ السلوكَ الجَمْعي هو هراءٌ في هراء . ومن هنا أيضاً فإنّ من وظيفة المؤرّخ الإنسانيّ ، الذي توفّر على قراءةِ تاريخ أُمّةٍ بحيث اكتشفَ مفاتيحَها السّلوكيّة ، مثلما فعل مؤرّخٌ عظيمٌ هو المسعودي رائدُ هذا النمط من قراءة التاريخ (طبائعُ الأُمَم) ، أن يُعمّمَ معرفته بحيث تصبحُ ذاكرةُ الأُمّة (طبائعُها) تجربةً تاريخيّةً ، بحيثُ تُميّزُ بين مواطنِ النّجاحِ ومواطنِ الفشل . وليست قدراً مقدوراً لا مَفرَّ منه .

(٣)

لقد ارتكبَ أسلافُك العثمانيّون (هم أسلافُنا أيضاً شئنا أم أبينا) خطأيَن سياسيّيَن تاريخيّيَن كبيريَن ، ظلّوا يدفعون وندفعُ ثمنَهما نحن في بلاد الشام ، وخصوصاً في وطننا لبنان ، مدّةَ ثلاثة قرون .

. الأوّل : نظام المِلّة . الذي ألغى صفةَ مواطنين ، أو (رّعايا ، حسب اللغة العثمانيّة) لحساب تصنيفٍ عموديٍّ للأُمة جعلها من ملّتيَن اثنتيَن تتابينُ حقوقهما .

. ملّةُ الدولة . وهم حصراً أهلُ السُّنّة ، وخصوصاً أتباعُ المذهب الحنفي . هم وحدَهم المرعيّون من قِبَلِها . ولهم وحدَهم حقوقٌ مُصانّة .

. مِلّة الأروام . وهم كل المسيحيّين بصرف النظر عن مذهبهم وقوميّتهم . وهؤلاء ليس لهم على الدولة أي حقّ. أي أنّهم متروكون لأنفسهم ليتدبّروا شؤونَهم. ولكن لم ينلهم منها كبيرَ سوء ، مُراعاةً لجانب الدُول الغربيّة .

أمّا غير السُنّة من المسلمين ، وخصوصاً الشيعة منهم ، فقد اعتبرهم النظام خارجَ كلِّ المِلَل . كفّار ليس لهم عند الدولة إلا حدّ السيف ابتغاءَ إفنائهم ، حتى إن هم خضعوا لسلطانِها .

. الثاني:ما أن دخلَ فاتحُ الشام السلطانُ سليم مدينةَ حلب حتى بادرَ إلى تنظيم مذبحةٍ مهولَةٍ بمن بقي فيها وفي نطاقِها من الشيعة ، قضتْ على عشرات الأُلوف منهم فيما يُقال . مُستنداً إلى فتوى من أحد فقهائِه المدعو الشيخ نوح الحنفي ، قضت بوجوب قتل كلِّ شيعي تابَ أم لم يتُب .

في سياق بيان الأثر البالغ السوء والمُتمادي لذينك الخطأيَن السياسيّيَن نقول ، أوّلاً ، إنّ أسوأَ ما في عمل السلطان ليس المذبحةَ نفسَها، على وحشيّتِها وهمجيّتِها بالإضافةِ إلى أنّه ما من سببٍ سياسيٍّ أو غير سياسيٍّ لها،وإنما هو في نفس تلك الفتوى .

كانت تلك الفتوى أوّلُ خطابٍ سياسيٍّ من نوعه في الإسلام . صدرتْ عن أعلى مرجعيّتيَن سياسيّةٍ ودينيّة ، وجرى العملُ بها . بحيثُ أنّ الذين لم يكتووا بنارِها من عُرُض الناس اعتبروها بمبدإها ونتيجتِها صحيحةً . وبحيثُ أنّ من مفاعيلِها ما يزالُ مُتمادياً حتى اليوم .

كما أنّ من مفاعيلِها المُباشرة على موضوعِها ، أعني الشيعة ، أنّها وضعتهم في لبنان أمامَ خِيارٍ وحيدٍ ، هي أن يتّكلوا على سواعدهم وسيوفِهم في حمايةِ أنفسِهم من بطشِها . فتجمّعوا في المواطنِ الجبليّة الحصينة وغيرِها ونظّموا أنفسَهم لمواجهة الخطر القادم ، بحيث اكتسبوا نمطاً من الاستقلال والحريّة بحدّ السيف . ومضى الحالُ على هذا المنوال مدّة ثلاثة قرون . يشنّون الغاراتِ على الدولة وتشنُّ عليهم

بالمقابل . وبلغ الأمرُ أن قدِمتْ العساكرُ مرةً من استامبول بقيادة الصدر الأعظم لقتالهم في جبل لبنان دون جدوى . وغنيٌّ عن البيان أنّ هذا الوضع أنهكَ الطرفين . بل وربما كان من الأسبابِ البعيدة التي أدّتْ إلى انهيار الدولة العثمانيّة في النهاية .

والغريب أنّه أثناء هاتيك القرون لم يخطر ببالِ أحدٍ من السلاطين العثمانيين أن يحلّ المُعضلة حلاً سياسيّاً . مع أنّ ذلك لم يكن يقتضي أكثرَ من أن يتركوا الشيعة لشأنهم ، وأن يتخلّوا عن سياسةِ إفنائهم . وفي هذا دليلٌ ساطعٌ على ما قلناه قبل قليل على التأثير الطاغي للذّاكرة الجَمْعيّة على السلوك السياسيّ للأُمَم . بل وبلغ الأمرُ بهم ، أن رفضوا بأفظعِ طريقةٍ فرصةً ذهبيّة لتسويةٍ سياسيّة ، بادرإليها وعمل عليها أعلى فقهاء الشيعة في الشام شأناً ، هو زين الدين بن علي الجُباعي الشهير بـ (الشهيد الثاني) .

قصدَ الشهيدُ استامبول حيث التقى برجال الحُكم والدين فيها وحاورهم ، وبالنتيجة عاد يحملُ براءةً بالتدريس والإفتاء في مدرسةٍ في بعلبك . ممّا كان سابقةً بعثتْ الأملَ بتبدُّلٍ في العقل السياسي العثماني . وبالفعل جلس الشهيدُ في المسجد الكبير في بعلبك يُدرّسُ ويُفتي على المذاهب الخمسة . وكان من إقبالِ الناس عليه ما عزّزَ الأملَ بأن تكتشفَ استامبول ما خفي عليها من ضمير ووُجدان الناس . ولكنّها لم ترَ في تلك الأُمثولة الرائعة إلا أنّها تُعارضُ نظامَ المِلل . فدفعته إلى الخروج من بعلبك . ومضت تُطارده في وطنه جبل عامل ، حيث أمضى بضع سنين ينتقلُ مُتخفّياً من بلدٍ إلى بلد . وأخيراً قبض عليه جلاوزتُها في حَرَم الله مكة المُكرّمة ، التي قصدها للحج والمجاورة إلى أن يأتيه الأجل . وذلك في المسجد الحرام أثناءَ الطواف . وساقته إلى استامبول حيث ضُرب عنقه فوراً دون أن يُوجّهَ إليه حتى سؤال .

أمّا المسيحيون فقد انتهى بهم الأمر إلى أن كسبوا لأنفسهم ، بدعمٍ كاملٍ من الدّول الغربيّة ، ما سُمّي في اللغة السياسيّة الدوليّة آنذاك بـ (الامتيازات الأجنبيّة). بمقتضاها بقوا رعايا للدولة ، ولكن دون أن يكونَ لها أيّ سُلطةٍ عليهم ، بما فيه إعفاءهم من الضرائب . لأنّهم تابعون لهذا أو ذاك من ملوك فرنسا أوانكلترا أو روسيا . كلٌّ وفق مذهبه . وبذلك غدا وضعُهُم أفضلَ بكثير من وضع مَن هم من ملّة الدولة .

هكذا انقلبت سياسةُ الامبراطوريّة العثمانيّة عليها بأسوإ العواقب . وممّا لا ريب فيه أنّها لو اتسع صدرُها لجميع مواطنيها لعاشت وعاشوا بسلامٍ وأمان . بل وربما استمرّتْ حتى اليوم ، مثل جارتها إيران . وفي هذا درسٌ كبيرٌ لمَن يُحسنُ قراءتَه واستيعابَ مغازيه .

(٤)

لن تُصدّق، أيّها الرئيس، كم كنتَ كبيراً وأميناً بغضبتك الشهيرة على القَتَلَة الإسرائيليين في دافوس . لقد بدّتْ لكلّ الناس عفويّةً وصادقةً إلى حدّ الإدهاش . خصوصاً وأنّها أتتْ في ظلّ شعارِ وزير خارجيّتكَ النبيه "صفر مشاكل" ، الذي حقّق بسرعةٍ إنجازاتٍ مُذهلة على صعيد علاقاتِ بلدك . ثم تنظيم أُسطول الحريّة لنُجدة المحاصَرين في غزّة . بالإضافة إلى تفصيلٍ صغيرٍ ، ولكنّه بالغ الدلالة ، يومَ شاركتَ الشيعةَ في تركيّا شعائر حزنهم على إمامِهم الشهيد . يومَها بدوتَ أباً وأخاً للجميع ، حاملاً همومَ الأُمّة ، مُتعالياً عن صغائر الأُمور. كثيرون قالوا : هي ذي لحظة ظهور زعيمٍ إسلاميٍّ كبير. وهناك من استعمل عبارة "عبد الناصر إسلامي" . أمّا أنا فقد رأيتُ فيها بعيني المؤرّخ إختراقاً يفوقُ كلَّ التوقّعات للعقل السياسي التركي . نفذتْ إلى الجانب الآخَر، حيثُ الأكثريّة الإسلاميّة المُتعطّشة إلى مَن يُمثّلُ ضميرَها . وذلك إنجازٌ عجزت عنه الدولةُ العثمانيّةُ في عزِّ سطوتِها ، بسبب أخطائها السياسيّة الكبيرة التي عرضناها فيمّا فات . وقُلنا أنها ترجعُ في عناصرها إلى ذاكرةٍ جمْعيّةٍ مُثقَلَة .

ثم فجأةً ومن دون سابق إنذار جاء الانغماسُ في وحول "الثورة السوريّة" ليهدمَ كلَّ الآمال .

(٥)

"الثورةُ السوريّة" ليست ثورةً فقط . نعم هناك بَرَمُ جزءٍ من الشعب بالنظام الحاكم لصِبغته الطائفيّة . وما من مِراءٍ في حقِّ أيِّ شعبٍ في قبول أو رفض قادته ومُدبّريه . ولكن هات لي نظاماً آخرَ ليس له مثل تلك الصّبغة . ليس اليوم فقط ، بل في كلّ تاريخه . ونعم أيضاً ، هناك الحكم المغولي للهند الذي كان أبعدَ عن الطائفيّة / المذهبيّة . ولكنّه كان عند الهندوس أكثرَ بكثيرمن نظامٍ طائفيّ .

الحقيقةُ أنّ الأزمةَ السوريّةَ هي ثمرةُ تقاطُعٍ لعدّة عوامل . هي ، بالإضافة للعامل الداخلي ، شعورُ الأنظمة الإسلاميّة السُّنيّة بأنه بدأ يخسرُ موقعَه الأوّل بين المجموعات الإسلاميّة ، بسبب قيام الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران وتداعياتِها وامتداداتِها في الوسط الشيعي . بالإضافة إلى الإنجازات الكبيرة التي حقّقتها على غير صعيد . ولكنّها بدلاً من أن تُنافسَها في ميدانِها السياسي والتنموي . . . الخ. لجأت إلى سلوك سبيل العُنف فكريّاً وعمليّاً . فسالَ الدمُ الإسلاميُّ غزيراً وما يزال. ثم هناك العاملُ الغربيُّ العظيم الأثر. الدُّول الغربيّة تعاملت مع النظام السوري نفسِه أثناءَ أربعة عقود دون كبير مشاكل . لكنّ ظهورَ الثروة الهائلة من حقول النفط والغاز البحريّة ، المُمتدّة من شمال سوريّة حتى جنوب يافا على الأقلّ، بعرضٍ يصِلُ إلى جزيرة قبرص ، قلبَ كلَّ المقاييس . الغربُ يمكنُ أن يقبلَ سوريّةَ بحجمها السياسي والاقتصادي الحالي . ولكنّ سوريّةَ القادمةَ على بحرٍ من النفط ، المُتحالفةَ مع عدوِّ الغرب الأوّل إيران ، ويُمكنُ أن يُكرّرَ نموذَجَها في السياسة والتنمية المُستقلّة ، هي أكثرُ بكثيرٍ من أن يقبلَهُ الشّرهُ الغربي .

المهمّ بالنسبة إلينا في هذا الخطاب أنّ تركيا كانت البابَ الوحيدَ الذي ولجَ منه الجميعُ إلى سوريّةَ . ومعهم كلُّ ما يخطرُ بالبال من أجهزة المُخابرات ، ذات الخِبرة في فنون ما يُسمى لُعبة الأُمم ، لينهالوا عليها تقتيلاً وتدميراً دون أدنى رحمة . ما يرفعُ درجةً خوفنا ممّا يجري أنّنا لا نعرفُ أحداً سار في مثل هذا الطريق وفاز بالنجاة .

(٦)

أيها الرئيس .

نُكرّرُ أنّ من حق أي شعب أن يختار قادتَه ومُدبّريه . ولكنّ هذا لا يعني أبداً استيرادَ المُرتزقة ، وإن تحت عنوان (المجاهدين) ، وتمويلهم وتسليحهم لينهالوا على بلدٍ تدميراً وعلى أهله تقتيلاً وتشريداً . اختيارُ الشعب أمرٌ مقدّس . ولكن ضمن آليّاتٍ مُقرّرة ومعروفة .

ثم هناك أسئلةٌ كبيرة : ماذا بعد؟ وإلى أين؟ أين أصبحنا من دافوس وروح دافوس ؟

هل نغضب لحصار شعبنا على يد إسرائيل في غزّة ، ونرضى بهذا القتل الذّريع لشعبنا سوريّا ؟

من ذا الذي سيمنعُ النار هناك من الامتداد إلى الجوار ومنه تركيا ؟

وأخيراً : نرجوك لا تُكرّر أخطاءَ أسلافك !

وقاكَ الله ، ووقى تركيا ، ووقانا جميعاً . والسلام .

–